الشاعر القائد الشهيد
عبد الله بن رواحة

الشاعر القائد الشهيد

عبد الله بن رواحة

إن الفداء الحق ــ فداء من أقبلت عليه الحياة وملكها لا فداء من أدبرت عنه وخرجت من يده فضحى وفدى أما الأولون فهم الأموات الخالدون وأما الآخرون فهم الأموات أبدا ــ ومن ذلك الصنف الأول شاعرنا القائد الشهيد (عبد الله بن رواحة) صورة من صور عظماء المجاهدين الذين ضربوا للناس أرفع المثل وعاشوا فى عالمهم الأخروى فى سعادة سرمدية إذ يرون رساله الله كيف سارت حتى انتظمت فيها الدنيا وسادت العالمين وهـذه هى أنبل غاية استشهـدوا من أجلها تحت لواء رسول الله فأنشدت لهم كائنـات السماء أناشيد الخلود .

عبد الله بن رواحة :

هو (عبد الله بن رواحة الأنصارى) ويقال كنيته أبو رواحة ، ويقال أبو عمرو الخزرجى الشاعر المشهور ، ويكنى : (أبا محمد)ولعله كان يكنى بها جميعاً وأبوه «ثعلبة بن امرىء القيس» ينتهى نسبه إلى الحارث بن الخزرج وأمه كبشة بنت واقد خزرجية أيضاً وليس له عقب. وهو من السابقين الأولين من الأنصار وخال النعمان بن بشير الصحابى المعروف وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين المقداد بن الأسود وكان يكتب فى الجاهلية ــ والـكتابة فى العرب قليلة ــ وكان يكتب للنبى عليه الصلاة والسلام فى الإسلام . وقد كان عظيم القدر فى قومه سيدا فى الجاهلية ليس فى طبقته أسود منه كما كان عالى القدر فى الإسلام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

شاعريته :

أما شاعريته فقد أجمع الثقات عليها فعده ابن سلام من الشعراء الفحول من الخزرج وقال عنه ابن كثير أنه من شعراء الصحابة المشهورين . وقال الزبير رضى الله عنه : ما رأيت أحداً أجرأ ولا أسرع شعراً من ابن رواحة وكان أول من ذب عن رسول الله عليه السلام بلسانه ونافح عن دعوته ضد أعداء دينه من صناديد العرب. ويقول عنه الآمدى : إنه شاعر محسن وفارس مقدام . ولقد روى أنه لما نزلت الآية الكريمة «والشعراء يتبعهم الغاوون» قال عبد الله بن رواحة : قد علم الله أنى منهم فأنزل الله « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . . » ولقد كان النبي عليه صلوات الله وسلامه يدعوه إلى قول الشعر ويستحبه منه فقال له عليه السلام «إنزل فحرك بنا الركاب» قال (يارسول الله إنى قد تركت قولى ذلك» فقال عمر رضى الله عنه « اسمع وأطع » فنزل وهو يقول :

يا رب لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الكفار قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

فقال النبى عليه السلام «اللهم ارحمه» فقال عمر رضى الله عنه «وجبت » وحسبه تكريما أن النبي الكريم كان يرتجز بهذا الرجز حين خندق فى غزوة (الأحزاب) وهو ينقل التراب ويمد صوته بآخر كلمات هذه الأرجوزة . وقد روى ابن رواحة أنه مر فى مسجد رسول الله والرسول عليه الصلاة والسلام جالس وعنده أناس من أصحابه فى ناحية منه فلما رأوه نادوه وكرروا النداء فعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعاه فانطلق نحوه فقال له النبي صلوات الله وسلامه عليه : إجلس هاهنا فجلس بين يدى الرسول الكريم فقال له النبي عليه السلام : كيف تقول الشعر إذا أردت أن تقول ؟ كأنه يتعجب لذلك! فقال

ابن رواحة (أنظر فى ذاك ثم أقول) قال له الرسول عليه الصلاة والسلام فعليك بالمشركين . ولم يكن عبد الله قد هيأ شيئاً فنظر فى ذلك ثم أنشد :

خبرونى أثمان العباء متى كنتم بطاريق أو دانت لكم مضر

فتغير وجه رسول الله حمية لقريش وكره بعض ما قاله وأنه جعل قومه أثمان العباءة فعاد عبد الله يقول :

أنت الرسول فمن يحرم نوافله والوجه منه فقد أزرى به البصر
يا هاشم الخير إن الله فضلكم على البرية فضلا ما له غير
إنى تفرست فيك الخير أعرفه فراسة خالقتهم فى الذى نظروا
ولو سألت أو استنصرت بعضهم فى جل أمرك ما آووا ولا نصروا
فثبت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذى نصروا

فأقبل عليه النبى عليه الصلاة والسلام بوجهه مبتسماً وقال (وإياك فثبت الله) وقد أتى النبى الكريم وهو يخطب فسمعه يقول إجلسوا فجلس مكانه خارجاً من المسجد حتى فرغ النبى عليه الصلاة والسلام من خطبته فبلغ ذلك النبى الأمين فقال له : زادك الله حرصاً على طواعية الله وطواعية رسوله ـ وقد تملكه حبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكان كثيراً ما يلازمه ، وها هو ذا رسول الله عليه السلام يدخل المسجد على بعير يستلم الحجر بمحجن فى (عمرة القضاء) وبصحبته ابن رواحة يأخذ بزمام ناقته وهو يرتجز :

خلوا بنى الكفار عن سبيله نحن قتلناكم على تأويله
كما قتلناكم على تنزيله ضرباً يزيل الهام عن مقيله
ويذهب الخليل عن خليله

فقال عمر رضى الله عنه : يابن رواحة : أفى حرم الله وبين يدى رسول الله تقول هذا الشعر ؟ فقال النبى عليه الصلاة والسلام : خل عنه يا عمر فوالذى نفسى بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النبال ، وقد ذكر ابن شرف النووى

أن ابن رواحة أحد الشعراء المحسنين الذين يردون الأذى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والإسلام والمسلمين؛ ويؤيد دعواه ما ذكره صاحب الأغانى من أنه كان أحد الثلاثة (هو وحسان بن ثابت وكعب بن مالك) الذين كانوا يردون عن النبى صلى الله عليه وسلم أذى قريش وشعرائهم بالهجاء المر فلما أسلمت قريش كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة لأنه كان يهجوهم بالكفر .. ويذكر المرزبانى فى معجم الشعراء أن أحسن ما مدح به النبى عليه السلام قوله :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تنبيك بالخبر

ومما نقله البخارى من شعره فى رسول الله قوله :

وفينا رسول الله نتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع
أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع

وقد عده أبو زيد القرشى فى (جمهرة أشعار العرب) من أصحاب المذهبات ـ مع حسان بن ثابت ـ وهى للأوس والخزرج خاصة وأورد له قصيدة منها :

متى ما تأت يثرب أو ترددها تجدنا نحن أكرمها جدوداً
وأغلظها على الأعداء ركنا وألينها لباغى الخير عودا
وأخطبها إذا اجتمعوا لأمر وأقصدها وأوفاها عهودا
إذا ندعى لنار أو لجار فنحن الأكثرون بها عديدا

وله شعر رواه ابن هشام فى السيرة فى رثاء نافع بن بديل ، وفى تخلف أبى سفيان عن وعده فى بدر ولكنه ذكره مشتركا فى الرواية بينه وبين كعب بن مالك فلم نورده وحسبنا هذه الملامح المعبرة عن شاعريته الفذة ولننتقل إلى جهاده .

قيادته :

أما قيادته فتتضح من أنه كان فى الجاهلية يناقض قيس بن الخطيم وأنه شهد العقبة مع السبعين من الأنصار وكان ليلتئذ نقيب بنى الحارس ابن الخزرج وشهد (بدرا وأحدا والخندق والحديبية وخيبر وعمرة القضاء) والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا الفتح وما بعدها لأنه كان قد توفى قبلها فى (مؤتة) وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فى ثلاثين راكباً (إلى أسير بن رازم اليهودى) بخيبر فقتله . وكان فى جهاده موضع تقدير رسول الله عليه السلام فهو الذى استطاع أن يرد على (عبد الله بن أبى) قبل إسلامه حين مر بمجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان بالمجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ووقف النبى يدعوهم إلى الله سبحانه ويقرأ عليهم القرآن الكريم فقال (ابن أبى) للنبى عليه صلوات الله وسلامه : (أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذنا به فى مجلسنا . ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه) فعارض (ابن رواحة) عبد الله بن أبى وهو من هو آنذاك بالمدينة وقال : (بلى يارسول الله فاغشنا به فى مجالسنا فإنا نحب ذلك) فتساب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتناورون . فلم يزل النبى صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وهكذا كانت جرأة ابن رواحة كما قال (الزبير) وفروسيته كما ذكر الآمدى ولذا كان النبى عليه السلام يقول عنه كما روى أبو هريرة رضى الله عنه (نعم الرجل عبد الله بن رواحة) .

وبلغت ثقة الرسول عليه صلوات الله وسلامه بجرأته أن استخلفه على المدينة حين خرج عليه السلام إلى غزوة (بدر الموعد) وكان شاعرنا أول خارج إلى الغزوات وآخر قافل منها ، ولذا اختاره النبى الأمين أحد الأمراء فى (غزوة مؤتة) فى جمادى الأولى سنة ثمان واستعمل عليها (زيد بن حارثة) وقال (إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس . فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على

الناس) وتسمى أيضاً (غزوة جيش الأمراء) وذلك لكثرة جيش المسلمين فيها وما لاقوه فى الحرب الشديدة مع الكفار . . فتجهز الناس ثم تهيئوا للخروج وهم ثلاثة آلاف فلما كان الخروج ودع الناس الأمراء . . أمراء رسول الله . فلما ودع (ابن رواحة) معمن ودع من أمراء الرسول صلى الله عليه وسلم بكى. فقالوا: ما يبكيك يابن رواحة ؟ فقال (أما والله ما بى حب الدنيا ولا صبابة بكم . ولكنى سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقرأ آية من كتاب الله عز وجل يذكر فيها النار « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا » فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود) فقال المسلمون : صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين فقال ابن رواحة :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدى حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثى أرشده ربى من غاز وقد رشدا

ثم خرج القوم وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا ودعهم وانصرف عنهم قال عبد الله بن رواحة :

خلف السلام على امرىء ودعته فى النخل خير مشيع وخليل

ثم مضوا حتى نزلوا (معان) من أرض الشام فبلغ الناس أن « هرقل » قد نزل (مآب) من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم وانضم إليهم من (لخم وجذام والقين وبهران ويلى) مائة ألف منهم عليهم رجل من (يلى) يقال له (مالك بن زافلة) فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على (معان) ليلتين يفكرون فى أمرهم وقالوا : نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعدد عدونا فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له وهنا وقف (ابن رواحة) يشجع جيش المسلمين قائلا :

(يا قوم والله إن التى تكرهون للتى خرجتم لها تطلبون الشهادة . . وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة . . ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين ، إما ظهور وإما شهادة) فقال الناس (قد والله صدق ابن رواحة) :

هذا (هرقل) يسوق الجيش مرتكما ... كالعارض الجون يرمى الأرض بالوهل
يزجى الكتائب من روم ومن عرب ... فى المرهفات المواضى والقنا الذبل
والصافنات تهادى لاعداد لهـا ... من كل منذلق فى الكر منجفل
إن الذين أرادوا الرأى وانتظروا ... لم يبرح النصر مولاهم ولم يزل
لم يلبث القوم حتى قال قائلهم ... فيم الحوار ، وهل فى الأمر من جدل
إنا خرجنا نريد الله فاستبقوا ... من كل منتهب للخير مهتبل
لو زالت الأرض أو حالت جوانبها ... بمن عليها من الأقوام لم نحل
هما سبيلان ، إما النصر ندركه ... أو جنة الخلد فيها أطيب النزل
لسنا نقاتل بالآلاف نحشدها ... ألفاً لألف من الأبطال مكتمل
إنا نقاتل بالدين الذى ضمنت ... أعلامه النصر فى أيامنا الأول
لولا مقالة (عبد الله) ما انكشفت ... تلك الغواشى ، ولولا الله لم يقل

وهنا استحمس الأجناد فتقلدوا العزم للهيجاء وادرعوا صادق البأس وأقبلوا إلى سعار الموقعة لو مالت الشم لم يميلوا من فزع وهنا قال (عبد الله بن رواحة) فى مجلسهم ذلك :

جلبنا الخيل من أجأ وفرع ... تفر من الحشيش لها العكوم
حذوناها من الصوان سبتا ... أزل كأن صفحته أديم
أقامت ليلتين على (معان) ... فأعقب بعد فترتها جموم
فرحنا والجياد مسومات ... تنفس فى مناخرها السموم

فـلا وأبى مآب لنأتينها وإن كانت بها عرب وروم
فعبأنا أعنتهـــــا فجاءت عوابس والغبار لهـــــا بريم
بذى لجب كأن البيض فيـه إذا برزت قوانسها النجوم
فراضيـة المعيشـة طلقتهـا أسنتهـــــا فتنكح أو تئيم

ثم مضى الجيش يقوده الأمراء وكان (زيد بن الأرقم) يتيما لعبد الله بن رواحة فى حجره فخرج به فى سفره هذا ؛ مردفه على حقيبة رحله فوالله إنه لبسير إذ سمع (ابن رواحة) ينشد :

إذا أديتنى وحملت رحلى مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك أنعم وخلاك ذم ولا أرجع إلى أهلى ورائى
وجاء المسلمون وغادرونى بأرض الشام مشتهى الثواء
وردك كل ذى نسب قريب إلى الرحمن منقطع الإخاء
هنالك لا أبالى طلع بعل ولا نخـل أسافلها رواء

فلما سمعها (ابن الأرقم) منه بكى فضربه ابن رواحة بالدرة وقال له (ما عليك يالكع أن يرزقنى الله الشهادة وترجع أنت بين شعبتى الرحل) .

ومضى الجيش حتى إذا كانوا بتخوم (البلقاء) لقيتهم جموع (هرقل) من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها (مشارف) ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها (مؤتة) فالتقى النـاس عندها فتعبأ لهم المسلمون فجعلوا على ميمنتهم رجلا من بنى عذرة يقال له (قطبة بن قتادة وعلى ميسرتهم رجلا من الأنصار يقال له (عباية بن مالك) ثم التقى الجيشان واقتتلوا فقاتل (زيد بن حارثة) براية المسلمين بلواء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سال دمه من رماح القوم واستشهد :

(يازيد) أديت حق الله فامض على نهج الألى انتقلوا من قبل وانتقل

آبو إلى خير دار ، مالنازلها من أوبة تبعث الأشجان أو قفل
جاهدت فى الله ترضيه وتنصره لم تلق من سأم يوما ولا ملل
هذا الذى نبأ الله الرسول به فاغنم ثوابك والق الصحب فى جذل

وهكذا كان مصير النفس الكبيرة التى عرف النبى الأعظم حقيقتها فرفعها من رتبة العبودية إلى رتبة النبوة ثم أمره على المسلمين ثم رفعه مرة أخرى إلى رتبة الشهداء الصالحين . . وفى المدينة وقف النبى صلى الله عليه وسلم يقول (استغفروا لزيد لقد دخل الجنة وهو يسعى) فحمل اللواء (جعفر) فتى بنى هاشم فجاءه الشيطان ومناه الحياة الدنيا وكره له الموت فقال (جعفر): (الآن حين استحكم الإيمان فى قلوب المؤمنين تمنينى الدنيا) ولم يتردد لحظة وقاتل حتى لم يجد مخلصاً ؛فرمى بنفسه عن فرس له شقراء وضرب قوائمها وهى قائمة بالسيف وهو يقول :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها
على أن لاقيتها ضرابها

ثم انقض على الروم يقتل فيهم يميناً وشمالا ، ولكن ما لبثت سيوفهم أن قطعت يمينه فأخذ اللواء بشماله فقطعت فاحتضنه بعضديه فضربوه بسيوفهم حتى قطعوه نصفين ،وأقبل عليه المسلمون فوجدوا فيما بقى من بدنه تسعين ضربة بين طعنة برمح وضربة بسيف :

وأنت يا (جعفر) المأمول مشهده خذ اللواء وجاوز غاية الأمل
هذا جوادك ما حالت سجيته ولا ارتضى بوفاء الحر من بدل
عقرته وركبت الأرض تمنعه مواطن السوء من ضن ومن بخل

دلفت تمشى على الأشلاء مقتحما والقوم منجدل فى إثر منجدل
فقدت يمناك فانصات اللواء على يسراك ما فيه من أمت ولا خلل
حتى هوت فجعلت الصدر موضعه كأنه منه بضع غير منفصل
يا قائد الجيش ضج الجيش من ألم وأنت عن دمك المسفوك فى شغل
لقيت حتفك فى شعواء عاصفة حرى الجوانح ظمأى البيض والأسل
أعطيتها منك نفساً غير واهنة أعطتك سورة مجد غير منتحل

وهنا يأتى دور الشاعر القائد المؤمن الذى فنى فى دعوة الله وطاعة رسوله والذى قال عنه أبو الدرداء (أعوذ بالله أن يأتى على يوم لا أذكر فيه عبدالله بن رواحة كان إذا لقينى مقبلاً ضربنى بين ثديى وإذا لقينى مدبراً ضربنى بين كتفى ثم يقول : ياعويمر تعال ساعة فلنجلس فنذكر الله ماشاء ثم يقول ياعويمر هذه مجالس الإيمان)وسألوا امرأة قائدنا الشهيد عنه فقالت:(كان إذا أراد أن يخرج من بيته صلى ركعتين وإذا دخل صلى ركعتين لا يدع ذلك) .

جاء دور (عبد الله بن رواحة)فإنه حين استشهد جعفر أخذ ابن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو يقول (يانفس إلى أى شىء تتوقين إلى امرأتى فهى طالق إلى غلمانى فهم أحرار وإلى صحن حائط فهو لله ورسوله) ثم رفع اللواء واستقبل فقاتل برهة ثم عاد وأخذ يؤنب نفسه على تردده كل التأنيب يلوم نفسه على لحظة صغيرة ترددها فعاد يقول:

أقسمت يا نفس لتنزلنه لتنزلن أو لتكرهنه
قد أجلب الناس وشدوا الرنه مالى أراك تكرهين الجنه
قد طال ما كنت مطمئنه هل أنت إلا نطفة فى شنه

ونزل المعركة واشتد الهول فأصيبت أصبعه فارتجز وجعل يقول :

هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

يا نفس إلا تقتـــــلى تموتى هذا حياض الموت قد صليت
وما تمنيت فقـــد أعطيت إن تفعلى فعلهما هـــديت
وإن تأخرت فقد شقيت

يعنى فعل صاحبيه (زيداً وجعفراً) ثم استعر أوار المعركة وأتاه ابن عم له بعرق من لحم (العظم عليه بعض اللحم) وقال لابن رواحة (شد بهذا صلبك فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت) ولم يكن ذاق طعاماً قبل ذلك بثلاث — فأخذه ثم انتهس منه نهسة بفمه ؛ثم سمع الحطمة فى ناحية الناس فقال لنفسه: (وأنت فى الدنيا) ثم ألقى عرق اللحم من يده وأخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى استشهد .

استشهاده

أما استشهاده فكان فى جمادى الأولى من العام الثامن للهجرة بالبلقاء زاهدا فى البقاء راغباً فى اللقاء وكتبت له الرحمة التى وعده بها سيدنا محمد الصادق الأمين وأمن عليها عمر خليفة المسلمين :

إنهض بعبئك (عبد الله) مضطلعا بكل ما تحمل الأطواد من ثقل
هذا مجالك فاركض غير متئد وإن رأيت المنايا جولا فجل
كم جئت بالعرنى السمح مرتجلاً واليوم يوم منايا الروم فارتجل
للعبقرية فيـــه مظهر أنق يا حسنه مظهرا لو كان يقدر لى
ياشاعر الصدق ماخاب الرجاء ولا مثل العطاء الذى أدركت والنفل
خذ عند ربك دار الخلد تسكنها قدسية الجو والأرواح والظلل
آثرته واصطفيت الحق تكلؤه مما يحاول أهل الغى والضلل
ليس العرانين كالأذناب منزلة ولا الغطارفة الأمجاد كالسفل

وفى عالم آخر لا ينتهى اجتمع الأحبة الذين عرفوا الحب تضحية وفداء لله

ورسوله لا شهوات وصغائر فكانوا فى الأرض الأوفياء المجاهدين وكانوا فى الآخرة الشهداء الخالدين .

وقد اجتمع المهاجرون والأنصار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أخذ زيد بن حارثة الراية فقاتل حتى قتل شهيدا ثم أخذها جعفر بن أبى طالب فقاتل حتى قتل شهيدا) ثم صمت رسول الله عليه الصلاة والسلام حتى تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أن كان فى (عبد الله بن رواحة) ما يكرهون فقال عليه الصلاة والسلام (ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل شهيدا) .

صلى الإله عليهم من فتية ... وسقى عظامهم الغمام المسبل

صبروا (بمؤتة) للإله نفوسهم ... حذر الردى ومخافة أن ينكلوا